عظماء الإسلام : عبد الرحمن الناصر: أول خليفة في الأندلس

الأربعاء 10 مايو 2017 01:05 م

يـذخرُ التاريـخ بالعديـد من الشخصيات التي حفرت اسـمها في عقول الكثير منـا، وانطبعت في أذهاننـا بالحكمـة والقوة والسـياسة والبطش والعلم والعمران والزهـد والعـدل، ومن بين هؤلاء عبـدالرحمن بن محمـد بن عبـدالله المشـهور بـ«عبـد الرحمن الناصـر لـدين الله» حفيـد صـقر قريش «عبـدالرحمن بن معاويـة»، وُلـد عبدالرحمن في 22 رمضان 277هـ/ ديسمبر 890م، وأمه جاريه إسـبانية نصرانية تُدعى ماريا أو مُزنة، وبعـد مولـده بأسـابيع قُتل أبوه محمـد على يـد أخيه المطرَف حسـدًا وبغضًا، فتولاه جـده بالرعايـة وقرّبه حتى أصبح من خواصّه، وعهـد إليه في بعض الأيام بالجلوس مكانه تمهيـدًا لخلافته وتعضيـدًا لولايته، وقـد ظهر نبوغ ذاك الفتى منـذ صغره فـدرس التاريـخ والفقه والحـديث والنحو والشـعر في سن مبكرة، والغريب أنه بالرغم من وجود أعمامه إلا أنه بويع بالإمارة – برغم صغر سنه فهو الشاب ذو الثلاث والعشرين ربيعًا- عقب وفـاة جـده الأمير عبـدالله دون تصارع وتنـافس من أعمـامه، ولعـل زهـدهم في الملـك كـان نابع من اضـطراب الأنـدلس، وبـداية تفككه، وانهيار دولة بني أمية بعد سقوطها في المشرق

يبـدو أن المحن ولـدت لـدى الجميع نفس الشعور بمحاولـة إيجاد الفارس الـذي يرُم شعث الدولـة، ويظهر ذلك من قول عمه الأمير أحمـد بن عبدالله: «والله لقد اختارك الله على علم للخاص منا والعام، وتمام النعمة، وإلهام الحمد».

ويقول ابن عبد ربه صاحب «العقد الفريد» عند ارتقاء الناصر للعرش الأموي في الأندلس:

بدا الهلال جديدًا *** والملك غض جديد
يا نعمة الله زيدي*** ما كان فيك مزيد
إن كان للصوم فطر*** فأنت للدهر عيد
إمام عدل عليه*** تاجان: بأس وجود

ويظهر لنا من تلك الأبيات أنها تُعبر عن طبيعة أهل الأنـدلس في محاولـة للبحث عن الأمير الـذي يمتلك البأس؛ ليحزم الأمر، ويُعيـد الدولـة، ويجود على الناس فيوسع على المعسـر، ويقوم المعوج، ويقيم البنيان والعمران، ولا أعلم بيت لخّص حياة الناصـر بقوة مثل هذا البيت حيث جمع الرجل الخصلتين الأساسيتين للأمير وهما البأس والجود، ويبدو أن ابن عبد ربه كان نافذ البصيرة محقًّا!

واقع مضطرب

تسلَّم الأمير الأنـدلسَ وقـد أرهقتهـا الثورات، فـابن حفصون في الجنوب، وبنو الحجّـاج في إشبيليـة وما حولها، وبنو ذي النون في طُليطلة وسـط الأنـدلس، وموسـى بن موسـى في سرقسـطة، وهجمـات النصـارى ومنها مملكـة ليون بقيادة أردونيو الثاني على الغرب الأنـدلسـي، فحاول الناصـر أن يعيـد للأنـدلس ما قام به جـده عبـد الرحمن الـداخل من جعل الأندلس أمة واحدة، ومحو التفرق والقبلية منها، فلجأ الأمير لمعالجـة الوضع الـداخلي للدولـة، حيث أصـدر منشورًا لكافـة الثوار بالعودة للطاعـة والجماعة أو العقاب والحرب، فعاد البعض لرشدهم وأصـر الآخرون على عنادهم فما هي إلا أسابيع حتى أرسل الأمير حملته الأولى بقيادة الوزير عباس بن عبـدالعزيز القرشـي، وكانت موجهـة لقلعة ربـاح (Calatrava) للقضـاء على ثـورة الفتـح بـن موسـى بن ذي النـون فاسـتطاع جيش الأمير عبـدالرحمن هزيمـة الثـائر، وسـارت حملـة أخرى لمدينة اسـتجة (Écija) واستردتهـا من أيـدي أتبـاع عمر بن حفصون الثـائر الأقـوى في الأنـدلس، ثم خرج الأمير على رأس الحملـة العسـكرية سنة 300هـ/ مارس 913م، فـاتجه إلى الجنوب الشـرقي فأمن إلبيرة (Elvira) ومالقة (Málaga) واسـتولى على العديد من الحصون التي كانت بيـد عمر بن حفصون، واسـتمرت هـذه المناوشات فترة كبيرة حتى بعـد وفاة عمر بن حفصون سـنة 306هـ، ولم تنتهِ تلـك الثورات من أتباع ابن حفصون حتى عام 316هـ أي بعد وفاته بعشر سنوات ولم تكن تهدأ الأمور حتى يظهر ثائر آخر، وفي نهاية الأمر اسـتطاع الناصر أن يجمع تلابيب الدولة في يده ويورثها لابنه الحكم المستنصر دولة واحدة مجتمعة على حاكم واحد في قرطبة

من الإمارة للخلافة

بعـد أن اسـتتب الأمر للأمير عبـدالرحمن في الأنـدلس، أقـدم على أمر جلـل تمثّـل في إعلان نفسه خليفـة سـنة 316هـ، ويبـدو أنه اتخـذ من الأوضاع بالمشرق الإسلامي سببًا صريحًا لشرعنة تلقبه بالخلافة، ففي المشرق لم يبق للخلافة العباسية إلا الاسم؛ فقد تحكّم بالخلافة بنو

بـويه، وتفرد محمـد بـن إليـاس بحكم كرمـان، وبنـو حمـدان بالموصـل ، والإخشـيديون بمصـر وبلاـد الشـام، والفـاطميون بـالمغرب العربي، والقرامطة باليمامة والبحرين، والديلم بطبرسـتان وجُرجان، والسامانيون بخراسان، والبريديون بالعراق والأهواز أمام كل هذا التشرذم في المشرق الإسلامي شعر الناصر بقوته بعد القضاء على أعدائه، وأنه آن له الوقت ليصبح الخليفة، ومع إقدامه على ذلك أضحى لدينا ثلاث خلفاء عباسي قابع في بغداد، وفاطمي في المغرب الأوسط، وأموي في الأندلس، وبرّر الفقهاء تعدّد الخلفاء إذا كانت هناك مصلحة تقتضي ذلك، وشرعنوا الأمر طالما بينهم مسافة جغرافية كبيرة ويبدو أن الفقهاء- فقهاء السلطان- كانوا تُبع للحكام؛ إذ وصل الخلفاء الثلاثة المزعومون للحكم بالوراثة دون الشورى!

وبإصدار الناصر لهذا المنشور وتلقبه بأمير المؤمنين تحولت الأندلس من الإمارة إلى الخلافة، واستمر ذلك الأمر حتى سقوطها سنة 422هـ، وإعلان ما يسمى بحكم الجماعة الذي انقسم فيما بعد لحكم ملوك الطوائف،ويظهر التباين بين الخلفاء الثلاث فالعباسي يعتبر نفسه «سلطان الله في أرضه»، والفاطمي يرى أنه «الإمام المعصوم»، والأموي يرى نفسه «بشر يُصيب ويُخطيء»، ويتضح ذلك من النقد اللاذع الذي وجهه القاضي القرطبي المنذر بن سعيد البلوطي للخليفة الناصر في بنائه الزهراء واسرافه في تجميلها وتزييننها

الحكم والعمران

تميزت سياسة الناصر في الحكم بالعديد من السمات اللافتة؛ منها بأسه الشديد في محاربة الثائرين من العرب والمولّدين، ومحاولة جذب الأنصار له بالمال والسلطان، وتأييده لكل عدو لأعدائه تبعًا للقاعدة الشهيرة «عدو العدو صديق» فناصر الأدارسة أعداء الفاطميين، وقسطنطين السابع الذى حاول استرداد صقلية من أيدي الفاطميين، واستخدم المال في إبراز الحضارة الأندلسية وتفوقها على ما سواها من المنافسين الإقليميين؛ فقرّب العلماء، وزاد في أُعطياتهم، وأغدق على الشعراء لنشر قوته وقوة دولته وانتصاراته فاستخدمهم كبوق إعلامي قوي لمواجهة أعدائه، حاول أن يخلد اسمه في التاريخ فبنى الزهراء، وأعاد تقسيم الأقاليم الأندلسية إداريًا محاولاً تركيز السلطة في يده، ومن أكثر سماته في الحكم حبه للمجد ومظاهر الملك وأبهته

ولكن تلك السياسات التي تميزت بالبأس والحزم، دفعت الناصر للاستنجاد بدماء جديدة في دولته من أجل قبض سيطرته عليها؛ فاستخدم العنصر الصقلبي وبلغ الصقالبة من النفوذ ما لم يبلغه العرب وغيرهم في عصره، فكان منهم قادة الجيوش والوزراء وأصحاب النفوذ في البلاط وقد أثّرت هذه السياسة على نفوس الزعماء العرب وغيرهم من المتطلعين لمثل هذه المناصب بالسلب؛ إذ أنشا من الصقالبة جيشًا كاملاً مدربًا، كما عمل على تقوية الأسطول الأندلسي لمجابهة الأسطول الفاطمي في البحر المتوسط، وزيادة الخناق على المتمرد عمر بن حفصون بسبب تلقيه إمدادات من المغرب في ذاك الوقت، وحصّن الثغور الأندلسية المواجهة للمغرب خوفًا من حدوث هجوم فاطمي، ويظهر لنا محاولة الناصر تحصين دولته من الفاطميين ومذهبهم خوفًا من انتشاره؛ لأنه الأخطر عليهم – كما رأى – من النصارى، فالنصارى عدو صريح مختلف في الديانة ظاهرًا وباطنًا أما الفاطميين فقد يختلط مذهبهم على العامة

كما أنه قام بضم الجُزر المواجهه لجبل طارق لمحاولة إنشاء خط دفاع أول ومتقدم أمام الفاطميين، واستقطب رؤساء وزعماء القبائل في المغربين الأوسط والأقصى، وقام بتأييد الثورات والمؤامرات المعادية للفاطميين غير أن تحوّل الأطماع الفاطمية للمشرق حيث السلطة الروحية للمسلمين المتمثلة في الحرمين -فمن يسيطر عليهم يصبح الخليفة الروحي ومن ثم الفعلي للعالم الإسلامي- أنقذ الطرفين من صراع دموي طويل

تميّز عصر الناصر بالنهضة العمرانية، وذلك للنشاط الاقتصادي الكبير للدولة، فبلغت جباية الأندلس في عهده خمسة ملايين وأربعمائة وثمانين ألف دينار، وكانت سياسته المالية في الإنفاق قائمة على تخصيصه لثُلث الأموال للجيش والأسطول، وثلث للبناء والتعمير، والثلث الأخير كان يدخّره لنوائب الدهر، ومن أهم آثاره العمرانية مدينة الزهراء والتي بناها متخيلاً أنها ستُبقي ذكره في العالمين فهو القائل: «عندما يريد الملوك أن يُذكروا بعد موتهم ، يجب أن يكون ذلك بلغة العمران، ألا ترى كيف بقيت الأهرامات وكيف ضاع الملوك في تقلبات الدهر؟». فابتنى عاصمة جديدة بجوار قرطبة لتليق بالخليفة ووفوده، وتنافس بغداد مقر العباسيين، والقاهرة مقر الفاطمين، ولقد أسرف في بنائها وفي بناء قصرها المسمى «المؤنس»؛ فقد زوّدها بنفيس الفراش والتحف والتماثيل والزخارف ، ولقد بقيت الزهراء مقر الخلافة حتى نقل المنصور محمد بن أبي عامر مقر الخلافة لمدينته الجديدة الزاهرة ليؤسس هو أيضًا لنفسه أثرًا يخلّد ذكره ، ويبدو أن هذه النظرة العمرانية دائمًا ما تسيطر على الملوك والحكام المحبين للمجد والشهرة، ويتضح لنا ذلك على مدار التاريخ، ونسى هؤلاء أن بناء الإنسان أهم من العمران وأن الحضارة والنهضة تقاس بالعدل وقيمة الإنسان، فعمر رضى الله عنه يذكر بيننا أكثر من الناصر، بالرغم من أنه لم يترك آثارًا ولا أبنية وعمران يمجد اسمه، فالإنسان أولاً وآخراً